الجلسة الأولى

جوانب من السيرة الذاتية للكواكبي

سعد زغلول الكواكبي(*)

فقد آثرت أن تكون مشاركتي في إحياء هذه الذكرى التي تضمنت أبحاثا مستفيضة عن الإصلاح في العصر الحديث، وتخصيص عبد الرحمن الكواكبي نموذجاً لأبحاث الإصلاح في البناء الحضاري الإنساني، أقول: آثرت أن أترك الدراسة الفكرية للسادة الباحثين فهم أولى من الابن في الحديث عن أفكار أبيه، قاصراً بحثي على سيرته الذاتية، والكشف عن نواح كانت وما تزال مجهولة التفاصيل من حياته، مع ما صار إليه أمره في مراحل حياته وبعد مماته. فأصحح كثيراً من الأخطاء والمعتقدات التي تداولها بعض الباحثين ممن اهتموا بدراسته.

وأول ما أشير إليه هو تاريخ ولادته وتاريخ وفاته. فقد تباين ثبتها لدى الكثيرين. والحقيقة هي في أن والي حلب عثمان باشا، حينما عينه رئيساً لغرفة التجارة، سجّل في قيوده أنه من مواليد (١٨٤٧م)؛ لكي يتمكن من إزالة عائق السن. وقد رأى بعض الحساد في تعيينه وهو صغير السن خروجاً عن المعتاد، فراح الأديب الكبير أديب إسحاق يكتب في جريدته (التقدم) في ٥ تموز ١٨٨١م، هذا النص:

"توجه من مدة حضرة قدسي زاده نجيب أفندي، مأمور الإجراء، إلى دار السعادة بالرخصة، وناب عنه بهذه الخطة المهمة جناب الفتى الوطني النبيه الفاضل كواكبي زاده عبد الرحمن أفندي، فنهض بأعبائها خير نهوض وأثبت ما عهدنا به من بداهة الخاطر وسعة العلم بالقوانين. وكان هذا الفتى الفاضل قد انتخب عضواً دايماً لمحكمة التجارة، فزعم بعض القهقريين أنه لا يصلح لذلك من حيث أنه فتى لم يتجاوز ستاً وعشرين من السنين، وفاتهم أن القوانين لا تقضي بأن يكون عضو التجارة شيخاً ضعيفاً، بل تقتضي بأن يكون فاضلاً نزيهاً عالماً بواجباته وحقوقه.

(*) حفيد المصلح عبد الرحمن الكواكي، سورية.

ولله درّ من قال:

كَمْ مِنْ كبيرٍ قليلِ العقلِ ذِيْ بَلَهٍ — وكَمْ صَغيرٍ كَثيرِ العِلْمِ مُنتَخَبِ
لَيسَ الكَبيرُ الذي قَدْ شَابَ مَفْرِقُهُ — بَلِ الكَبيرُ الذي قَدْ شَاخَ في الأَدَبِ

فعسى أن يقبل أولو الأمر على رفع منازل النبهاء من الفتيان، فإنهم إن لم يكن من مزيّتهم غير قوة الشباب، والبعد عن فساد التقليد فحسبهم ذلك فضلاً".

هذا النص يدلنا- فضلاً عن تاريخ استلامه لهاتين الوظيفتين- على أن تاريخ ولادة "الكواكبي" هو ـ فعلاً ـ ٢٣ شوال (أي ٩ تموز ١٨٥٥م) فهو لم يكد يتم السادسة والعشرين من عمره وقتئذ، كما يقول"أديب إسحاق" تماماً؛ مما يثبت أن تاريخ الوثيقة الرسمية لسيرته الذاتية الصادرة عن الوالي "عثمان باشا" التي يذكر فيها أن ولادته كانت في ٢٣ شوال ١٢٦٥هـ(أي ١١ أيلول ١٨٤٨م) كانت خطأ٠ والتفسير لذلك أن تكبير سنه جاء سنة ١٣٠٤هـ أي سنة ١٨٨٧م أيام ولاية "عثمان نوري باشا "، أي بعد صدور جريدة التقدم بست سنوات، في وقت كان فيه "أديب إسحاق" موجوداً يوم ولادة "الكواكبي". وهذا التوضيح والثبت يكفيان لإزالة أي التباس ومنع كلّ خلاف حول تحديد تاريخ ولادته.

فإذا كان الكواكبي عام ١٨٨١م ميلادية في سن السادسة والعشرين، كما يعرف الكاتب، فذلك يعني أنه من مواليد سنة ١٨٥٥م. وهذا يطابق التاريخ الهجري الذي كتبه هو في دفتر صغير يحمل تواريخ ولادات أفراد أسرته، وما أثبتته المؤرخة الحلبية "عائشة الدباغ" من مشاهدتها لكتابة بخط والده على إفريز نافذة غرفة ولادته بحي الجلوم، وكذلك الكاتبة الإندونيسية "نور ليلى عدنان"، تنص على تاريخ ٢٣ شوال ١٢٧١م. فهو التاريخ الصحيح لولادة الكواكبي.

أما تاريخ وفاته فقد وقع الكثيرون في الخطأ بشأنه؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم التحقيق وقراءة الجرائد التي صدرت عقب وفاته في القاهرة، فلو فعلوا لتبين لهم أنه توفي ليلة الجمعة السادس من ربيع الأول ١٣٢٠ هـ.

هذا أمر من الأمور التي اختلف فيها بعض الباحثين، أما الأمر الثاني فهو في جنسية الكواكبي: ومن مظاهر ضعف بعض المؤرخين أنهم قرؤوا أو سمعوا أن جدي "عبد الرحمن" بعثه أبوه إلى خالته في "أنطاكية"؛ لتقوم على تنشئته بعد وفاة أمه، فاحتضنته وثقّفته،

فاستنتجوا أنها تركية، وبالتالي تكون أمه تركية، على اعتبار أن "أنطاكية" الآن في تركيا، ولم يلتفتوا إلى أن "أنطاكية" و"الإسكندرونة" بلدان عربيان اغتصبهما الأتراك مع سائر منطقة "اللواء" بمؤامرة مع الفرنسيين سنة ١٩٣٦م؛ تطبيقاً لاتفاقية "سايكس- بيكو" المشؤومة التي قسم بها الفرنسيون والإنجليز وحدهم - سراً- بلاد العرب سنة ١٩١٦م، كما لم يلتفتوا إلى أن خالته الشريفة صفية وأمه الشريفة عفيفة من "آل النقيب" بأنطاكية، وجدهم "أبو بكر النقيب" نقيب الأشراف، والنقيب لا يكون إلا عربياً ومن آل البيت.

وما هي إلا محاولات صهيونية يتدبرها "إيلي خيضوري" وزوجته "سيلفيا حاييم" اليهوديين؛ ليثبتا أن انتفاضة "الكواكبي" لم تكن بداعي القومية العربية وإنما هي إسلامية فحسب.

ولئن كان بعضٌ آخر من الكتبة قد قادته معرفته الجغرافية لموقع "أذربيجان وإيران" و" أردبيل" إلى الظن أن أصل الأسرة كردي أو عجمي أو تركي، فما ذلك إلا لأن هؤلاء لم يدركوا أن سيلاً ودفقاً عظيماً من العرب قد تدفق إلى تلك النواحي في الماضي البعيد. فانتشار الإسلام في تلك الربوع قد أتاح للعرب الاختلاط بالعجم فتحاً أو هجرةً واسعة، كما أتاح لأهل تلك النواحي الهجرة إلى الوطن العربي. ولا يستبعد أن نسمع من أمثال هؤلاء يوماً ما أن "آل اليافي" الذين هم بين ظهرانينا الآن، من أصل يهودي، لمجرد أن "يافا" أصبحت في الخارطة التي يعتمدونها في "إسرائيل" الآن!

وفي وثائق الأسرة، وفي كتب التاريخ المتعددة ثبتٌ لنسبة "آل الكواكبي" إلى بيت الرسول الأعظم. ومن جدهم محمد المهدي المهاجر من الخليج العربي -هارباً من ظلم الأمويين لآل البيت- إلى خراسان، نبتت الأسرة الصفوية. وجدّه الأعلى الحلبي انتقالاً، هو برهان الدين إبراهيم الصفوي الذي ترك "رحبة ملك بن طوق" مهاجراً إلى حلب في القرن الثامن الهجري، حينما كانت قبلة المهاجرين من العلماء والمتصوفة الشرقيين، من أمثال: النسيمي والسهروردي والهروي، ومن القبائل العربية القادمة من الحجاز، أمثال: "بني زهرة" من آل البيت، و"بني العديم"، و"بني العجمي" الذين هاجروا إلى بلاد العجم ثم إلى حلب فلقب جدهم بالعجمي، كما هي العادة في نسبة القادم من وطن ما إلى البلد الذي قدم منه. ولهذا كانوا يلقبون "إبراهيم الصفوي" جدّنا الحلبَي الأعلى بـ "الأردبيلي"؛ لأنه من مواليد "أردبيل" التي انتقل إليها أجداده من أولاد "محمد المهدي" سالف الذكر.

وفي حلب، صاهر إبراهيم "بني زهرة" وأنجب "محمداً أبا يحيى" الذي امتهن مهنة آباء له في علم الفلك، وحمل لقب المهنة "الكواكبي". وهو لقب ما تزال تحمله أسر من الشرق

الإسلامي حتى الأندلس والمغرب العربي. وقد ابتنى محمد هذا مسجداً جامعاً بجوار داره بحي الجلوم حوالي سنة ٨١٠ هـ تقريباً وما يزال قائماً معروفاً باسم "جامع أبي يحيى الكواكبي"، وعليه قبة شيّدت على نفقة "السلطان قانصوه الغوري" اعترافاً بفضل "الشاه إسماعيل الصفوي" حليفه في محاربة السلطان سليم التركي. وصاهر "بني زهرة" أسوة بأبيه. وتوفي سنة ٨٩٧هـ/١٤٩١م. وكان أهل حلب كلهم على المذهب الجعفري حتى معركة "مرج دابق" ودخول السلطان سليم حلب بعد مقتل السلطان الغوري سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، إذ نشر المذهب السني في سائر بلاد الشرق الأدنى.

حتى كان الثالثُ والعشرون من شوال سنة ألف ومئتين وإحدى وسبعين، التاسع من تموز عام ألف وثمانمئة وخمسة وخمسين، يوم ولد عبد الرحمن من أبيه "البهائي أحمد" مفتي حلب ومدرس الجامع الأموي الكبير والمدرسة الكواكبية التي ابتناها جده أحمد سنة ١٣٠٠هـ، وأمِه "الشريفةِ عفيفةِ النقيبِ" التي جدها "أبو بكر النقيب" نقيب أشراف حلب وأنطاكية.

توفيت أم عبد الرحمن فاحتضنته خالته "الشريفة صفية النقيب" وأشرفت على تثقيفه وتعليمه. وكانت - كما يذكر المؤرخون- من عالمات عصرها، كما كلفت قريبها الأستاذ نجيب النقيب بتدريسه التركية والفارسية. (و قد شاء الله أن صار هذا المعلم معلماً للخديوي إسماعيل الذي لجأ إليه الكواكبي في هروبه من الحكم التركي بعد أربعين عاما).

و لما اشتدّ عوده استعاده أبوه ليكمل دراسته العالية في المدرسة الكواكبية بحلب، حتى شب وراح يثقف نفسه، ويطالع جميع الكتب العلمية والشرعية والقانونية باللغات العربية والتركية والفارسية، نصاً وترجمة، إلى أن برع فيها، رغم وفاة والده، فانتبه إليه العالم المؤرخ التركي المعروف "جودت باشا" صاحب "السالنامة"، فكلفه بتحرير الجريدة شبه الرسمية "فرات" وهو في الحادية والعشرين من عمره.

و كان - إلى جانب عمله في هذه الصحيفة - يشغل نفسه بأمور الناس، ويستمع إلى ظلاماتهم، ويدلهم على طرق الشكوى والتظلم، ويمد إليهم يد المساعدة بكل ما أوتي من قوة. وما مر على عمله في "الفرات" عام واحد حتى أنبتت في ذهنه هذه الوظيفةُ فكرةَ إنشاء جريدة حرة لا رسمية، ينشر فيها آراءه التي يجب أن تصل إلى سائر أفراد الأمة، فأنشأ جريدة أسماها "الشهباء" كانت مقالاته فيها كالسيف المسلط على الحكام والموظفين الظالمين. فما لبثت السلطة أن عطلتها مراراً، حتى أغلقتها نهائياً. فاستعاض عنها -تحت اسم مستعار أيضاً لصاحب الرخصة-

جريدة سمّاها "اعتدال" لم يكن حظها إلا كحظ "الشهباء ". وهكذا راح الكواكبي يمارس النضال بشتى أشكاله السلمية، وقد توسعت مداركه وآفاقه العربية، وصار يحلم بالقومية العربية، ويطالب بالخلافة للعرب وحدهم وفي مكة المكرمة.

تنقل في وظائف عديدة، ونال مراكز كبرى كرئاسة البلدية، وهو أول عربي يرأس بلدية حلب ورئاسة غرفة التجارة والمصرف الزراعي ولجان فحص المحامين وكتابة العدل. فكان يتصدى في كل وظائفه إلى ظلم الحكام، فلا يلبثون أن يعزلوه عن وظيفته، حتى إذا احتاجوا إلى من يشغل وظيفة أهم لم يجدوا سواه، فيعيد الكرة مبتدئاً بمحاربتهم، حتى وصل الأمر بالولاة إلى اتهامه بجناية سياسية أدخل لأجلها السجن مع بعض وجهاء حلب. وقامت على إثر ذلك أول مظاهرة نسائية ضد السلطة في تاريخ العرب والإسلام يوم الثلاثاء ١٠ ربيع الأول ١٣٠٤هـ حدثتني عنها عمتي، ووصلت أخبارها إلى استنبول، وضج الشعب على إثرها، فافرج عنه، بينما توفي زميله "جبرائيل الدلاّل" في السجن قبل الإفراج. وقد قرأت في دفتر مذكراته بيتين من الشعر حول دخوله السجن، هما:

قالوا: حُبستَ؟! فقلت: ليس بضائري ... حبسي، وأيُّ مهندٍ لا يُغمَدُ؟!

والحبس ما لم تَغشَهُ لدنيّةٍ ... شنعاءَ، نِعْمَ المنزِلُ المتودّدُ

ثم اتهم بجنايات أخرى مماثلة حكم عليه من أجلها بالإعدام فطعن على الحكم ورد القضاة في حلب، إذ أثبت رشوتهم من الوالي "عارف باشا"، فنقلت محاكمته إلى بيروت، وهناك قضي ببراءته، وعاد إلى حلب فاستقبل استقبالاً شعبياً لا مثيل له، شارك فيه "أبو الهدى الصيادي" يد السلطان عبد الحميد، حيث بادره بالترحيب باسم "ابن العم "هادفاً من سماع الناس هذه الكلمة وسكوت الكواكبي عنها إلى موافقته على انتسابه إلى آل البيت، ولكن الكواكبي أدرك بغيته فوراً لئلا يفسر سكوته عنها بالقبول بهذا الانتساب، والناس يعرفون أن آل الكواكبي هم آل البيت ونقباء الأشراف في حلب من مئات السنين، فإذا به يجيبه على مسمع من الناس: "وعليك السلام يا أبا الهدى أفندي، ولكن "ابن العم" هذه من أين أتيت بها؟". فراح الصيادي يكيد له أشد الكيد، ووصل به الأمر إلى أن راحت السلطة تحرض العصابات على إحراق مزرعته، ثم تصادر أملاكه، فضلاً عن تدبير مؤامرة لقتله طعناً بالسكين قرب داره. فضاق ذرعاً، وعلم بأمره قريبه شيخ الإسلام "نجم الدين أفندي الكواكبي"- على ما يذكر

المؤرخ الغزّي- فيستدعيه إلى استنبول، وهناك يجمعه مع أبي الهدى ويحاول إصلاح ذات البين بينه وبين السلطان عبد الحميد. ولكن الكواكبي لم يكن إلا لينتهز فرصة إقامته في استنبول لدراسة أحوال السلطان وأبي الهدى والاستبداد الحميدي وسيطرة الأتراك على العرب وسرقة كنوز البلاد العربية والإسلامية وإهدائها إلى السلطان وولاته، مما نشاهده الآن في قصور استنبول.

وعاد إلى حلب، وانكب على تأليف كتابيه: "أم القرى" و "طبائع الاستبداد". حتى إذا أتم كتابة مسوداتهما، خرج من حلب بحجة أنه ذاهب إلى استنبول ليستبدل وظيفة أهم من وظيفة قاضي "راشيّا". ولكنه هرب إلى مصر، ونشر كتابيه هناك. وقد حمل "أم القرى" اسم المؤلف على أنه "السيد الفراتي" في حين حمل فيه -بعدئذ- كتاب "طبائع الاستبداد" اسم المؤلف على أنه "الرحالة ك". وسرعان ما وصلا إلى استنبول وحلب ودمشق وإيران التي تُرجما فيها إلى الفارسية. وقد قرأنا على الصفحة الأولى من الترجمة الفارسية اسم المترجم على أنه "عبد الحسين" وأن الترجمة جاءت امتثالاً لأمر مطاع! وتاريخها شهر شعبان، سنة ١٣٢٥هـ، أي بعد وفاته بأقل من خمس سنوات.

والغريب في الأمر أن المترجم لم يذكر اسم أبيه أو كنيته أو اسم أسرته، كما لم يذكر اسم صاحب الأمر المطاع الذي امتثل لأمره فترجم "طبائع الاستبداد". كما أن المترجم لم يذكر اسم صاحب هذا الكتاب المترجَم، وحقّ له ذلك؛ لأن الكتاب كان موسوماً باسم المؤلف "الرحالة ك". وقد تبين لنا أن ترجمة كتاب "طبائع الاستبداد "هذه كانت بإشارة مرجع ديني كبير.

وفي خلال رحلته هذه التي وصف فيها "مؤتمر أم القرى" موضوع كتابه الأول، ألجأته العسرة إلى الرجوع إلى بلده سراً. وفي حلب وجد أن أملاكه كلها قد صودرت، وأنه مطلوب للسلطة وقد اكتشفتُ ذلك من صك كاتب العدل، الذي نص على رهن داره التي كانت باسم زوجته بمبلغ خمسمائة ليرة ذهبية خرج بها سراً، عائداً إلى القاهرة.

وقد حدثني المرحوم "محمد أبو البحرين" والد زميلي القاضي، أن عقوبة مقتني كتابه "أم القرى" كانت جنائية، وعقوبة اقتناء كتاب "طبائع الاستبداد" كانت الإعدام. ومع ذلك فقد انتشرا بين الناشئة دون وجل، إلا ما أصاب أديبين لبنانيين قضي عليهما بالأشغال الشاقة، هما:" نخلة قلفاط" وشريكه "سليم الميداني" صاحبَيْ المكتبة الكلية ببيروت، إذ عثر البوليس في مكتبهما على نسخة من "أم القرى" لم تكن مباعة لأحد. وقد توفي المرحوم "نخلة" في سجنه، على ما ذكرت جريدة "المقطم" القاهرية، سنة ١٩٠٥م. في حين كان يدفع

وكلاء الصيادي ليرة عثمانية ذهباً لمن يتخلى لهم عن كتاب عبد الله النديم "المسامير في أبي الهدى الصيادي"، فإذا بكتاب النديم يفقد نهائياً من أسواق العالم العربي، بينما يبقى كتابا الكواكبي حتى اليوم رغم عقوبة الإعدام. ومن الوثائق الهامة التي صودرت -وهي الآن في استنبول- رسالة (لينين) إلى الكواكبي التي قرأها في المأبن السلطاني الزعيم الوطني المرحوم إحسان الجابري رئيس اتحاد الدول العربية، وأوصاني مرات عدة بالسعي للكشف عنها.

وإلى جانب هذين الكتابين الباقيين كانت هناك كتب أخرى ضاعت بالمصادرة وأرسلت مع "عبد القادر القباني" لطبعها، فأنفذها إلى السلطان عبد الحميد مع أوراق كثيرة. والكتب التي عرفناها هي:

١. "صحائف قريش"، الذي أشار إليه الكواكبي في مقدمة "أم القرى" ذاكراً أنه سيصدر وسيكون له شأن كبير في النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية.

٢. "العظمة لله" الذي يتحدث فيه عن عبادة الشخصية وسيئاتها، والعبودية ورفضها إلا لله تعالى، منتقداً أحوال السلطان العثماني والحكام الأتراك والمنافقين لهم. وقد شاهد المرحوم "محمد كرد علي" هذا الكتاب وأتى على ذكره في "خطط الشام".

٣ . "كتاب الأنساب"، فقد وجدتُ رسالة من عمي الطبيب العسكري "أسعد" إلى أخيه الطبيب العسكري "رشيد" مرسلة إلى "طرابلس الغرب" في نهاية الحرب الكونية الأولى، توصية له بأن يمر على "الشيخ رشيد رضا"؛ ليستعيد منه كتاب "الأنساب" الذي كان والده قد سلمه إياه ليطبعه في"المنار"، ولا نعرف مصير هذا الكتاب ولا جواب هذه الرسالة؛ ذلك أنني اكتشفتها بين أوراق عمي التي أعطتني إياها عمتي بعد وفاته بمدة بعيدة.

٤. "أحسن ما كان في أسباب العمران" وفيه تكلم عن عمران المدن بمعنى الحضارة والرقي. وقد أشار إليه "عبد المسيح الأنطاكي" ووعد بنشره، وهو مفقود كذلك.

٥. "ماذا أصابنا وكيف السلامة"، وقد ذكر هذا "محمد رشيد رضا" في المنار سنة ١٩٠٥م. وقد وعد الأنطاكي بنشره، إلا أن الأنطاكي ـ أيضاً ـ تعرض لملاحقة الخديوي، وهجر مصر إلى أمريكا، ولا نعلم ماذا حل بالكتابين.

٦. "تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام": وهذا مبحث ذو أهمية خاصة خفية عن الناس، تتعلق بأسرتنا الكواكبية وبفتاة زنجية من "سنّارة" بالسودان المصري سابقاً، خطفت من قبل أعداء قبيلتها، وبيعت إلى تجار الرقيق في جدة واشتراها حاج جاء بها إلى حلب

وعذبها، فشكاه الجيران إلى الكواكبي فأنّبه، فلم يرتدع، فشكوه ثانية، فجاء إليه مؤنباً ثانية وطلب منه تحريرها فامتنع بحجة دفعه ثلاثماية ليرة عثمانية ذهباً، فافتداها منه جدي، وأخرجها من بيته، وخيّرها في الذهاب إلى حيث تريد فاشتكت وتوسلت بأن ليس لها أهل هنا، وحكت له قصة خطفها من غابة سنارة، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى أفراد أسرته على أنها أختهم الجديدة "سعيدة" (كما سمّاها تجار الرقيق بجدة). واعداً إياها بإعادتها إلى "سنّارة" وكان قد أزمع على الهجرة إلى مصر مكلفاً زوجته باصطحابها حينما يبعث بطلبها مع الأسرة برسالة سرية. ولكنه استشهد في مصر غيلة وبقيت الفتاة في البيت لتربي والدي وأخته، يتيمي الأب والأم.

سردت لكم هذه القصة ـ اضطراراً ـ لأدلكم على سبب كتابة الكواكبي مبحث تجارة الرقيق ـ حسب اعتقادي ـ الذي جمع مواده من رحلته الكبرى التي كشف فيها أسرار تجارة الرقيق في إفريقية والبحر الأحمر وجدة بتجرد ونزاهة، مما أشار إليه -أيضاً- في "طبائع الاستبداد". ولعله تمكن من الوصول إلى معرفة أهل متبناته "حجاب النور"؛ لأنه يعرف علائم خدها المشرّط بإشارات إلى قبيلتها في "سنارة" التي لا تعرف اسمها. وقد عثر الدكتور محمد عمارة على مبحث الرقيق ونشره في "الأعمال الكاملة للكواكبي".

تلك هي كتبه، وأما مقالاته فقد اكتشف منها الكثير -ولا يزال يكتشف- على يد الصحافي "جان داية"، كما أشارت إلى بعضها الكاتبة الأندونيسية "نور ليلى عدنان" مما قرأته مكتوباً في جريدة "القاهرة" سنة ١٩٠٣م بعد وفاته بشهور، مع تعليق لـ"بشير اليوسف" ووعْدٍ بأنه سينشر للكواكبي مؤلفات أخرى غير "أم القرى" و"طبائع الاستبداد"، تلقّاها من صديق قريب للكواكبي نقلها عنه وأملاها عليه. وتؤكد هذه الأديبة أن الصديق هو الأديب العربي الكبير "عبد المسيح الأنطاكي" الذي عرف بلقب "نديم الكواكبي" تلميذه في حلب قبل الهجرة ونديمه ورفيقه في المهجر.

وقد تحدث الأديب "يوسف يزبك" في الخمسينيات، من راديو بيروت، فسمعنا منه كيف أن الشباب المثقف في بيروت كانوا يرسلون أولادهم الصغار، وهو منهم، إلى الفرّان، فيقول له: "أعطني العصا لأبي" فيدخله إلى طرف لديه، ويخرج كتاب "طبائع الاستبداد" فيخفيه في عبه ويعطيه عصا يخرج بها إلى أبيه!

نعم، ضاقت سبل العيش في وجه الكواكبي، وأدرك أنه لن يتمكن في هذا البلد السجين من نشر أفكاره التي تجاوزت حدود الدفاع عن المواطنين الحلبيين إلى نطاق العالم الإسلامي والعربي قاطبة، وأن ذلك لن يتم له إلا في مصر التي لجأ إليها كثير من الأحرار، وهو يعلم أن الخديوي إسماعيل زميل له في الدراسة على معلمه نجيب النقيب. وهكذا فقد رهن داره العظيمة التي أشرف على بنائها، لقاء خمسمئة ليرة عثمانية ذهبا لدى أحمد آغا هنانو، وانتقلت أسرته إلى شقة في دار الشيخ عبد الحميد الجابري (حيث تعرف والدي بعد بلوغه على والدتي!) كما رهن أرض بستان "الكتاب" (مكان بناء المجلس البلدي العتيد بحلب الآن) لقاء مبلغ مماثل لدى السيد جرجي خياط، وهرب تاركاً أسرته في حلب بعد أيام من الرهنين إلى مصر.

وفي مصر اكتشف الخديوي وجوده بعد أن اطلع على مقالاته وكتاب "أم القرى" فأنفذ من فتش عنه ودعاه إلى مقابلته، فأعجب به ومنحه الحماية.

ومن القاهرة خرج سائحاً في البلاد الإفريقية الشرقية، ثم الهند وجنوبي آسيا، وعاد إلى الجزيرة العربية. ومن الحجاز عبر الصحراء ودخل بلاد الخليج العربي، واجتمع بشيوخ وأمراء القبائل العربية، ودرس إمكاناتهم المعيشية واستعداهم الحربي، وبث فيهم روح المقاومة والانتصار للقومية العربية.

وبعد أن وصل في رحلته إلى حدود الصين وروسيا، عاد إلى مصر حاملاً معه أسرار ومعلومات رحلته، حتى أنه جلب معه نماذج من معادن الجزيرة العربية ومنها قوارير تحوي "زيت القار" (وهو النفط) اكتشفه بمناسبة عبوره صحراء الربع الخالي نحو مشيخات وإمارات الخليج العربي، كأول عابر لها على ظهور الجمال من عرب وغيرهم من خارج الجزيرة العربية ليقدمها للعلماء لتحليلها، على ما ذكر "محمد رشيد رضا". وفي القاهرة علم بالزيارة التي قام بها الخديوي إلى السلطان عبد الحميد والصلح الذي تم بينهما. وكان ذلك حديث مجالسه مع كبار شخصيات مصر من"محمد رشيد رضا" و"محمد عبد ه" و"علي يوسف" و"الثعالبي" والشاميين مثل "محمد كرد علي" و"عبد المسيح الأنطاكي" وسواهم. وأدرك أن الخديوي قد عاف ناحيته وقلب له ظهر المجن. وبالفعل فقد استدعاه الخديوي لمقابلته في قصره بالإسكندرية، فشاور الرفاق

فأشاروا بالاستماع إليه، فنزل عند رأيهم ليضع حداً لمظانه، وقابله بالفعل في الإسكندرية فإذا بالخديوي يطلب منه أن يرافقه في رحلته القادمة إلى استنبول لمقابلة السلطان الأحمر، ومدّ يد المصالحة إليه ليعفو عنه. فرفض وخرج غاضباً، ووصل إلى القاهرة مساء. وفي المقهى راح يحدث رفاقه عما جرى.

وقد أدركه التعب من وعثاء السفر، وشعر بألم في أمعائه، فطلب من صديقه الحلبي "عبد القادر الدباغ" أن يرافقه إلى بيته مع ابنه كاظم، فكان ذلك. وما إن اختلى بابنه كاظم حتى اشتد ألمه وراح يتلوى ويطلب من ابنه أن يخبر عبد القادر ليستدعي طبيباً، فخرج ابنه لاحقا بعبد القادر الدباغ (والد المؤرخة الحلبية عائشة الدباغ) الذي لم يكد يغلق بابه عليه، ومستنجداً به، فهرع معه إلى أبيه، فإذا هو يقول له: "لقد سمّموني يا عبد القادر" ويسلم الروح بين يديه. وكان ذلك ليلة السادس من ربيع الأول سنة ألف وثلاثمائة وعشرين هجرية، الثالث عشر من حزيران سنة ألف وتسعمائة واثنتين ميلادية.

ورنّ جرس الهاتف في الساعة الثانية صباحاً في مكتب جريدة المقطم لدى "إبراهيم سليم النجار" وانتشر الخبر كالصاعقة في أنحاء القاهرة، وأرسل الخديوي طبيبه ليفحصه ويقدم تقريره، وأمر بالإنفاق من ماله الخاص على جنازته.

وأبّنه كبار الأدباء والشعراء، ومنهم حافظ إبراهيم الذي نقشت أبيات رثائه على قبره، وهي:

هُنَا رَجُلُ الدُّنْيَا، هُنَا مَهْبِطُ التُّقَى   هُنَا خَيْرُ مَظْلُومٍ، هُنَا خَيْرُ كَاتِبِ
قِفُوْا واقرؤوا أُمَّ الكتابِ وسلِّمُوْا   عَلَيْهِ، فَهَذَا القَبْرُ قبرُ الكَواكِبِيْ

ومصطفى صادق الرافعي وسواهم.

تلكم هي جوانب خافية من حياة جدّي عبد الرحمن الكواكبي لم يذكر المؤرخون إلا ما اشتهر منها، إلا أنني أرى لزاماً عليّ -هذا اليوم- من أن أصرح لكم بأن الكواكبي قد اغتيل ثلاث مرات:

الأولى: في حادثة تسميمه بفنجان القهوة. والثانية: حصلت قبل سنة من الآن، إذ راح لصوص المقابر في قرافة باب الوزير بالقاهرة يهدمون ضريحه؛ لاستبدال قبور أخرى من قبره. وقد شاهدت بعثة مؤسسة السينما السورية الضريح وهو مشرف على الأندراس، فتوقفت عن تصويره

في فيلم "تراب الغرباء" وعن تصوير مرحلة حياة الكواكبي في مصر، وكتب محافظ حلب إلى وزير الأوقاف بالقاهرة بهذا الشأن، فأحال الكتاب إلى مديرية الآثار فأبدت موافقتها على ترميم الضريح. وأنتم تعلمون أن ذلك غير مستطاع مادياً على أسرته، فضلاً عن عدم قدرتهم على الاشتباك مع لصوص المقابر في معركة دمية.

وهكذا سكت الجميع عن العمل المجدي، ولا أعرف ما إذا كانت الدمن قد نبتت على تربته أو أن مُشيّدات أخرى قد حلّت محله، فإذا كان ذلك لم يحدث حتى الآن فإنني أتطلع إلى المؤسسات الإسلامية في العالم أجمع، آملاً بأن تسارع إلى إنقاذ الضريح أو نقل الرفات إلى مسقط رأسه أو إلى جامعه الذي شيّده له المرحوم جمال عبد الناصر في القاهرة. وأما الاغتيال الثالث فقد حدث في ذكرى وفاته المئوية، وفي بلده، وحكاية ذلك هو ما يأتي:

علمت الدنيا، داخل الوطن وفي الخارج، بحلول هذه الذكرى المئوية لوفاة رجل يقدّره العالمان العربي والإسلامي، ويحترمه الغرب، وأراد بلده -على لسان رئيس الوزراء- أن يسابق الآخرين في الاحتفال بهذه الذكرى. ولكن الاتفاق الذي كان قد جرى بين المراجع السورية والفرنسية على إقامة ندوة ثقافية في المركز الفرنسي للدراسات العربية في حلب حول "الإصلاح الديني في الإسلام"، رأى أن تكون هذه الندوة مناسبة لاتخاذ شخصية "الكواكبي" رمزاً لها، وجرى التحضير لها بعد الموافقة عليها من قبل وزارة الثقافة وتحدد موعدها. وفي خلال هذا التحضير، دفع إخلاص المسؤولين وغيرتهم الوطنية إلى المبادرة بإقامة "مهرجان الكواكبي" في أوائل تشرين الأول من هذه السنة، تشارك فيه سائر الجهات والمراجع الثقافية بإشراف السلطات العليا في البلد؛ تحقيقاً لرغبة رئيس الوزراء برعاية هذه الذكرى. وسارت أمور التحضير برويّة، وتقرر أن يقام مرة كل سنة في يوم معين، لسائر المناسبات الثقافية المحليّة حاملاً اسم "الكواكبي"، دلالة على الاستمرار بإحياء ذكرى ابن حلب.

ولما انعقدت الندوة العالمية التي سمّيت بندوة "عبد الرحمن الكواكبي" في حزيران، قبل أربعة أشهر من موعد المهرجان العتيد، برعاية السيد محافظ حلب الذي ألقى كلمة الافتتاح بحضور الرفيق أمين الحزب في الجلسة الافتتاحية التي جاء الذكر فيها على "عبد الرحمن الكواكبي" دون سائر الجلسات التالية، وبحضور حشد من العلماء العالميين والعرب، تحرك أحدهم من حساد الكواكبي وأذيال العثمانيين - مشّاء بنميم - فنشر بين

الملأ أن الاجتماع كان مهداً للماسونية والشيوعية والصليبية، وانتشرت دعايته في سائر المراجع الدينية مع زعم كاذب بأن "الكواكبي" كان ماسونياً، وقد أبلغتني سيدة في اللاذقية أنها سمعت ذلك من إمام في أحد جوامعها، وأنها أبلغت محدثيها بكذب تلك الإشاعة. ولم أحصِ الجوامع والمدارس الدينية التي وصلت إليها هذه الإشاعة في سائر المدن.

ولم يلبث هذا السعي في قتل "الكواكبي" للمرة الثالثة أن وصل إلى مسامع المسؤولين الكبار، فأبلغوني أن المهرجان قد ألغي، وأنه يكفي إقامة ندوة لفرع اتحاد الكتاب العرب في حلب بمشاركة متحدثين محليين دون الأجانب. وهكذا فقد أسدل الستار على المهرجان الكبير، وكان الاغتيال الثالث.

قضايا كبرى ومواقف مشرفة

في كل مرحلة من مراحل حياة الكواكبي كانت قضية وكان لها موقف مشرف عصيب، إلا أنني أعجب للشجرة المثمرة التي قطع الأتراك أوصالها في حياة صاحبها أن يعودوا أذيالهم إلى محاولة حرق جذورها بعد وفاته.

وأول موقف له مشرف كان في محاولته نقد السلطة في جريدتها الرسمية، ثم في إصداره جريدة "الشهباء" أول جريدة في حلب، كانت منبراً للآراء الحرة المناهضة للسلطة. وفي مقالة تلو الأخرى كان يتصدى للظلم وللتفريق بين أفراد الشعب تبعاً لمعتقداتهم الدينية ومواقفهم من استبداد الحكام، حتى عطلت بعد أحد عشر عدداً، وتابع نضاله في جريدة "اعتدال" وظل ثابتاً عند مواقفه حتى عطلت أيضاً. ومن احتجاجاته القانونية احتجاجه على رفض طلب انتساب مسيحيين إلى الجندية بسبب عدم تسميهم بأسماء إسلامية! مع أنهم مواطنون يتحملون كافة الواجبات الضريبية التي على المسلمين، ومنهم القواد في الجيش العثماني.

ومن ذلك احتجاجه على ظلم فلاحين عرب من قبل الوالي، واضطهاد مشايخ الأشراف العرب في السويدية في لواء الإسكندرونة.

وقضية أخرى هي تمكنه من استئجار شركة (الريجي) محتكرة التبغ ومستعبد ة العمال والفلاحين، فراح ينفق من أرباحها على العمال، فأدرك الوالي نجاح خطته فأوعز بإحراق مواسم التبغ؛ مما تسبب في إفقار الفلاحين وفي إفلاس التعهد والعودة إلى عبد الرحمن بأضعاف ما أنفق.

ومن جملة مشاريعه التي تصدى الولاة لها وعزلوه من أجلها حينما كان رئيساً لبلدية حلب مشروع جر مياه نهر (الساجور) لإرواء المدينة، وإصلاح القنوات الرومانية من ينابيع (حيلان) خارج حلب، ومشروع إقامة الحواجز على مداخل الأسواق لمنع دخول الجمال إليها، ومشروع إنشاء سد (يوسف باشا) على نهر الفرات لإرواء حلب أيضاً. ومشروع تجفيف مستنقع العمق لإنقاذ أهل القرى من أمراض الملاريا بسبب البعوض . كل هذه المشاريع كانت مجالا لحسد الحكام، واتهامه بمحاولة إفقار الخزانة، حتى عزل عن وظيفته وضمّن ما أنفق. والغريب في الأمر أن مشاريعه قد جاء الزمان بتنفيذها رغم أنف الحساد! فقد نفّذت تباعاً ولم تعد له تضميناته.

أما مواقفه الأخرى فتتجلى في عدم قبوله الرشوة بمنصب قاض وتفضيله هجرة البلد على الانصياع لأوامر السلطان. وكذلك رجوعه من استنبول رافضاً دعوة السلطان بوساطة أبي الهدى الصيادي الذي وسط لديه عطاء الله باشا الكواكبي والي بغداد، ونجم الدين الكواكبي شيخ الإسلام. فقد رفض الوساطات وقفل راجعاً لينكب عل كتابة كتبه في الاستبداد بحلب بعد أن خبَره ـ كما يقول المؤرخ الغزي ـ في مهده.

و تكرر رفضه دعوة الخديوي عباس لزيارة السلطان عبد الحميد بناء على طلب السلطان ليصلح ما بينهما، رغم ما ينتظره من علو منزلة عند السلطان والخديوي وغنى فاحشٍ مما يناله المنافقون والمتزلفون. ولكن النفس الأبية تأبى إلا أن تمضغ الحصى وتنام على القذى ولا تطأطئَ الرأس لغير بارئها والصالحين من خلقه.

و أما قضاياه التي لم يسعفه الزمان بتحقيقها في حياته فهي:

أولاً: جمع البلاد العربية والإسلامية تحت راية العرب في خلافة عربية قرشية يستبعد الأتراك عنها، تمشياً مع حديث الرسول الأعظم: "الأئمة من قريش". إلا أن الزمن بعد نصف قرن جاد بتحقيق أمنيته نوعا ما بتشكيل الجامعة العربية، ثم المؤتمر الإسلامي اللذين كانا من بنات أفكاره على ما حققته موسوعة المعرفة الإيطالية التي ترجمت إلى العربية في مصر، مثبتة سبقه الأمم إلى فكرة المؤتمر الدولي.

ثانياً: فصل السلطتين الدينية والسياسية. وهذه من أهم القضايا التي بحثها الكواكبي.

فقد أدرك أن ليس في الإسلام رجل دين، فالمسلمون ليسوا كالنصارى أو البوذيين أو المجوس، أولئك الذين يختص منهم بالدين رجال معيّنون، فما يرونه هو الدين وما لا يرونه فهو ليس كذلك. وأما الدين الإسلامي فهو بين المسلم وربه، فإذا جهل شيئاً من أمور دينه فهو يسأل عنه عالما بالدين غير ذي سلطة.

ووجد كيف أن من سموا أنفسهم رجال الدين، من أمثال أبي الهدى الصيادي قد عاثوا في الأرض فسادا باسم الدين، حتى أنهم أوعزوا إلى السلطان بحذف كل كلمة تستعمل في إغاظة السلطان ولو كانت واردة في القرآن أو في الصحيحين. ولو راجعتم كتب التاريخ، وما ذكره لنا المؤرخ الغزيّ على سبيل المثال لتعجبتم، فقد حرموا استعمال كلمة (الخلع) و(المخالعة) وأحرقوا طبعة صحيح البخاري؛ لاحتوائها ذلك التعبير. كما منعوا استعمال كلمات: مظاهرة، حرية، استبداد، إلى آخر ما هنالك من التعابير التي توحي بالثورة والعصيان. وعمموا عبارات: "الملوك ملهمون" و"الخليفة ظل الله في الأرض" و"وليّ النعم" ... الخ.

ثالثاً: وجد أن الدولة التي تجيز الرّبا والخمر وتجعلهما مورداً من موارد خزانتها؛ إنما تفعل ذلك لأنها فسرت الدين بأوامر ممن سمتهم رجال دين، فلئن قبل المسلمون بفعلها فإنما يكونون قابلين لتدخل الدولة في شؤون الدين.

وتأسيساً على هذا فقد أناط الكواكبي أمور الدين بالخليفة وحده، فهو صاحب الأمر والشأن، وأناط التشريع بمجلس شورى من العلماء.

رابعاً: كما أن ليس للدولة أن تتدخل في الأمور الدينية، وليست لها ا السلطة التشريعية، فإنه لا يجوز لرجل أن يتدخل في شؤون الدولة باسم الدين، فيفرض ميزانية أو ضريبة أو نظاما دنيويا على المسلمين أو على الدولة، وإنما ذلك متروك أمره للسلطة الحكومية فحسب، حتى إذا ما أساءت الحكومة واستصدرت نظاماً يخالف الشريعة الإسلامية فإنه يكون مرفوضاً من خليفة المسلمين الذي أناط الكواكبي به وحده الرقابة على تنفيذ أحكام الدين الإسلامي دون سائر الناس، ولا سيما من يدعون باسم (رجال الدين) الذين لم يأت على تسميتهم قول في الإسلام. وكما أن ليس للسلطان أن يغير

في أوقات الصلاة كما فعل البعض، فإنه ليس لرجل يسمي نفسه رجل دين أن يعلن الحرب، أو حلّ حزب سياسي، أو وحدة ما مع طرف ما.

من هذا المنطلق يرى وجوب فصل السلطتين الدينية والسياسية، حتى إذا توقف الأمر عند درجة مس الدين الذي هو مصدر التشريع في بلادنا، فإن الخليفة - وحده - هو الذي يتدخل في حسمه.

أو لم نر كيف كانت المظالم الكبرى من الملوك المسلمين ناجمة من آراء رجال دينهم؟ وأما علماء الدين من أمثال أصحاب المذاهب فقد كان نصيبهم السجن والعذاب؟.

والعكس بالعكس، أولم نر كيف أن الملك الخليفة الفاطمي صاحب السلطان قد حرم وحلل ما لم يحرمه الله أو يحلله؟ وما كان ذلك ليحصل لو لم تتسلط هذه الفئة على تلك، أو لو كانت أمور الدين محصورة بتفسير العلماء، وتحصيلها غير ملزم لأحد ولكل مؤمن إيمانه وتفسيره دون إلزام، لا كما كان صاحب كل مذهب يكذبه ويكفره صاحب مذهب آخر.

من هنا كانت نظرية الكواكبي. وبهذا الشكل يفسر قصده، وهو الغيور على دينه منذ نعومة أظفاره، حتى أنه يكتب في دفتر والده عتاباً له على عدم إيقاظه إياه لصلاة قيام الليل في وقتها؟.

مذهبه وميوله الفكرية:

كان الكواكبي – رحمه الله- حنفي المذهب، ويؤمن بأن سائر المذاهب الإسلامية إنما هي من صلب الإسلام.

أما الأفكار والنظريات التي عمت بذورها العالم الأوربي، وبدأت تُنبت جذورها فيها، فقد أشار إلى أمرها حينما تكلم عن الاشتراكية، وأعلن أن العرب هم أسبق الأمم إلى المعيشة الاشتراكية، موضحاً أنها اشتراكية الإسلام.

و من طريف مواقفه أنه حينما عين مديراً لإدارة الأراضي الأميرية - التي رقبتها للسلطان، وكانت توزع على الباشوات ومتر في القوم - عمد إلى توزيعها على الفلاحين بأثمان ضئيلة، فهم أحق بها من أولئك لأن الأرض لمن يعمل عليها بيده ورثها عن الله تعالى لا لمن لا

يعرف منها إلا ريعها، وهي لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين. والصالحون هم العاملون عليها، وقد كان صريحاً في ذلك قبل الاشتراكيين الأوروبيين وقبل الشيوعيين.

كما أنه نعى على سلطة رجال الدين إذ أباحوا الربا في أنحاء الدولة العثمانية مما يتنافى مع تعاليم الإسلام التي سبقت ماركس وإنجلز ولينين، كما أباحوا تغذية واردات الخزانة العامة "بيت مال المسلمين" بضريبة الخمور.

أما المذاهب أو الجمعيات العالمية التي انتسب إليها سواه من المصلحين الاجتماعيين في البلاد الإسلامية فإنه لم يكن ليأخذ بأي منها. فالماسونية مثلاً لم تكن في سورية في أيامه، ولا هو علم بها تمثلاً بمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني حينما حلّ مصر مهاجراً، وهو وإن لم يكن يعرف عنها شيئاً - حتى في إقامته غير المستقرة بالقاهرة إلى جانب المذكورين - إلا أنه لم يكن ليقبل بأي نظام أو مبادئ غير إسلامية. والجدير بالذكر أن الماسونية في حلب لم تتشكل إلا في عهد الجنرال (سيراي) الفرنسي أيام الانتداب بعد عشرين عاماً من وفاة الكواكبي!

أما الأمر الثالث الذي أريد أن أعلنه فهو أنني، في السنة المنصرمة، اكتشفت من قراءة لمخطوط لعمي المرحوم الطبيب أسعد الكواكبي أن جدي أصدر جريدة ثالثة بعد هجرته إلى مصر، تابع فيها منهجه النقدي ومحاربة الاستبداد تخصيصاً بالدولة العثمانية، هي جريدة "العرب "التي ظهرت منها بضعة أعداد وما لبثت أن عطّلت بأمر الخديوي عباس، شأن جريدتيه الحلبيتين اللتين عطلتهما السلطة العثمانية قبل سنتين بسبب انتقاده لها. فأشرت إلى هذا الاكتشاف في مؤلّفي عن سيرته الذاتية طالباً من الصحافي الباحث "جان داية" الذي اكتشف جريدتيه "الشهباء" و" اعتدال" وألف كتيّباً عنهما، أن يسعى في سبيل اكتشاف هذه الجريدة المجهولة. فإذا به يعثر عليها وينشرها في كتيب لاحق بكتاب صحافة الكواكبي. وقد تبين أنها كانت تصدر سراً في الزقازيق، وقد نشر في رأسها أن مكتبها في عدن، تمويهاً بقصد عدم العثور عليه، ومع ذلك فقد كُشفت وعُطّلت، وبذلك صار القول الصحيح الآن هو أن جرائد الكواكبي كانت ثلاثاً لا اثنتين.

الأمر الرابع الذي رغبت في شرحه لكم دفعاً لكثير من الالتباس الذي وقع فيه البعض في شأن مذهب الكواكبي وعقيدته وانتسابه الاجتماعي، فأقول في ذلك كلّه:

كانت الأسرة الصفوية شيعية المذهب، وقد أخذ الشاه إسماعيل الصفوي على عاتقه نشر المذهب في إيران كلها. وجاء من أسرته مهاجراً إلى حلب "إبراهيم الصفوي" الذي أنجب

ابنه "محمداً أبا يحيى". وقد تصاهر أبناء الأسرة مع أسرة أبي المكارم حمزة ابن زهرة، والمعروف أن بني زهرة كانوا سادة الشيعة في حلب حتى يوم قتل السلطان قانصوه الغوري. وكان قد أمر بإشادة قبة على ضريح محمد الكواكبي اعترافاً بفضل ابن عمه الشاه إسماعيل، حليفه في محاربة السلطان سليم العثماني. إذ دخل السلطان سليم البلاد، واتبع أهلها مذهبه السني. ومن ذلك اليوم حتى الآن لا نعرف إلا أن مذهب أسرتنا هو المذهب السني. ويصر الأخوة الشيعة على أن ذلك كان من أفراد الأسرة على سبيل التقية، والله أعلم!

على أن عبد الرحمن الكواكبي ذاته كان غير منحاز ولا متعصب لمذهب إسلامي دون آخر. فهو يؤمن بأن المذاهب الإسلامية إنما هي من صلب الإسلام وقد عددها: المذاهب السنية والمذهب الجعفري والمذهب الزيدي، وصنّف مع السلفيين. وكان مع ذلك ينادي بفتح باب الاجتهاد كما في المذهب الجعفري، مخرجاً إياه عن صلاحية من سمّوا أنفسهم برجال الدين؛ لأنهم ليسوا إلا أتباع السلطة. ومؤكداً على أن الاجتهاد إذا لم يكن صادراً عن إرادة المؤمن فما عليه إلا اللجوء إلى عالم بالدين غير مأمور، وذلك تأكيداً منه على وجوب فصل الدين عن سلطة الدولة.

ومن يدري، فلعله لو كتبت له الحياة لأطلعنا على ما اصطفاه من النظم الاقتصادية التي تساير الإسلام وتوافق العرب جميعاً على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم بعد تطبيق الإصلاحات التي أشار إليها في كتاب "أم القرى".

أما ما أثاره أحد المتعممين في حلب، ونشره في مطبوعات رخيصة، من أن الكواكبي كان ماسونياً فهو زعم كاذب بصورة موضوعية؛ ذلك بأن الماسونية لم تنشأ في سورية إلا بعد دخول الجنرال (سيراي) الفرنسي سنة ١٩٢٩م، بعد وفاة الكواكبي بسبعة وعشرين عاماً. أما مجمل حياته من يوم مغادرته حلب حتى وفاته في مصر فلم تتخللها إقامة طويلة في القاهرة؛ لأنه قطعها برحلته الطويلة في الشرق. ولا أظن أن أيام إقامته في القاهرة قد جاوزت الستين يوماً — متفرقة- لا يمكن أن يكون خلالها قد سمع شيئاً عن الماسونية أو تلقى دراسة عنها من المرحومين محمد عبده والأفغاني اللذين لم يجتمع بهما إلا مرات معدودة في المقهى مع باقي الصحاب. ولم يذكر أي إنسان ممن عاشروه في أثناء إقامته بمصر أنه اعتنق الماسونية أو علم بها.

أيها السادة، تلكم هي النواحي الهامة التي لم يتطرق إليها مَن درس الكواكبي، أو التي أخطأ فيها بعض الباحثين، أردت أن أضطلع بتوضيحها لكم؛ لتكون مرجعاً لمن يريد توثيق حياة الكواكبي.